نظرات في سورة يوسف (13)

ولقد همت به

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

قال تعالى: (ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين، وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون).

تلفتنا الآية الكريمة إلى شباب يوسف الذي كان شباباً طاهراً نقياً محلقاً متسامياً ناظراً إلى المعالي، ويكفي فيه وصف ربه سبحانه بأنه كان من المحسنين، وجزاء المحسنين أن يؤتيهم الله تعالى حكماً وعلماً، ولعل المقصود هو النبوة، والحكم فيه معنى الحكمة والسداد، ثم موهبة القيادة والإدارة، ومن قبلها التمكن من النفس وحسن قيادها، لأنه لا يقدر على قيادة غيره من لا يملك زمام نفسه، ومن العلم ما تحدثت عنه الآية السابقة: (ولنعلمه من تأويل الأحاديث).

ويأتي البلاء الآخر والمحنة التالية على يوسف عليه السلام (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه)، والمراودة فيها معنى المخادعة والمنازعة، فهي تحتال عليه ليتنازل لها عن نفسه وعفته، ومقتضى ذلك أنه حريص عليها أشد من حرص الفتاة العفيفة، ومن الواضح أن اضطرار المرأة إلى الأسلوب المباشر المناقض لطبيعتها في أن تكون مطلوبة، يعني أنها يئست من أن يبادر هو، ويئست من استدراجه بالطرق غير المباشرة، وعبارة: (التي هو في بيتها)، للإشارة كما يبدو إلى أن مدخلها كان المكث الطويل والاختلاط والخلوة، من خلال وجود عبد في بيت سيده.

والمعتاد أن كثيراً من الرجال، حتى ولو كانوا خدما أو أرقاء، فضلاً عن العمال والموظفين والمساعدين، يطمعون في الوصول إلى نساء أسيادهم، أولاً تعويضاً عن تابعيتهم وربما إذلالهم لهم، واستغلالا لغياب الكبار وكثرة اتصالهم بأسرهم، أو للزواج من بناتهم على أمل الصعود، وفي أقل الأحوال اختلاس النظر على أمل الموافقة والقبول، وحيث لم يحصل من ذلك أدنى شيء بالنسبة ليوسف، مع تمتعه وتميزه بكل خصائص الرجولة، فلعل ذلك مما استفز امرأة العزيز فأخرجها عن طورها، أن يزهد فيها أي أحد فكيف بعبدها في بيتها؟. فكان أن غلقت كل الأبواب الداخلية والخارجية بإحكام، ربما لتطمئنه، أو تطمئن أنه لن يتمكن من الهرب، وقالت هيت لك أي أقبل فقد تهيأت لك.

وحيث قد اتجهت إلى المباشرة في العرض فلا مناص من أن يكون الرفض مباشراً كذلك، حيث لم تشأ أن تدرك أن عفته ليست جهلاً ولا ضعفاً ولا خوفاً من بشر، كلا فهذا الفعل حرمه الله وهو أعظم من يُخاف ويرجى ويستعان ويستعاذ (معاذ الله)، فإن ما تدعوه إليه هو الخطر الشديد الذي يستعاذ منه بالله،(إنه ربي أحسن مثواي) أي إن الله الذي أستعيذ به هو ربي الذي خلقني ورعاني، وقد أحسن مثواي؛ بأن جعل لي في قلب سيدك مكانة عظيمة، وقبل ذلك جعلني من بيت النبوة.

وقوله (إنه لا يفلح الظالمون) يعزز فكرة أنه سبق ودعاها وغيرها كما دعا الفتيين في السجن، وفي قوله تذكير لها أن الفلاح ليس في اقتناص الحرام بل في تجنبه، وهذا القول تعليل لامتناعه وتحذير لها من الاستمرار، من

خلال النظر إلى عواقب الأمور ومآلاتها، ولعل ذلك هو بعض ما يتضمنه تأويل الأحاديث أي استشراف المستقبل ومعرفة مآلات الأمور، سواء عن طريق الغيب بالرؤى وغيرها أو عن طريق الفراسة، أو ما تدل عليه الأوامر والنواهي الشرعية، وغير ذلك.

واللافت أن نظر يوسف عليه السلام كان متجهاً صوب الفلاح ويخشى من كل ما يبعد عنه، فلم يكن هاجسه خوف السقوط، وإنما عدم الفلاح، وفرق عظيم بين التفكيرين، وذاك من علو همته، ويدل قوله: (إنه ربي أحسن مثواي) أنه حريص على البقاء في ذاك المثوى الأحسن، ولن يقبل بأن يغادر مكانه أو مكانته.

قال تعالى: (ولقد همت به، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين).

هذه الآية الكريمة من الآيات التي كثرت فيها أقوال المفسرين، فاختلفوا في معنى الهم، وهل وقع منه الهم أصلاً؟

فمنهم من فهم الهم بمعنى ما يسبق العزم على الفعل، لكن قد وقع من المرأة الهم وما هو أكثر منه كذلك، من المراودة وتغليق الأبواب وقول هيت لك، ولا معنى لمجيء الأقل بعد الأكثر، حيث نلاحظ التطور في الأحداث وليس التراجع، إلا على معنى التفكير بالتحرك نحوه بعد أن رفض الاستجابة لدعوتها.

أما بالنسبة لوقوع الهم منه على هذا المعنى، فقد قال البعض: إن يوسف رجل مكتمل الرجولة ومن الطبيعي أن يتأثر أو أن تحدثه نفسه، لكن تميزه يظهر في عفته وإمساك نفسه مع شدة الدواعي وقوة النوازع.

وقال بعضهم إن صيغة: (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) تفيد نفي وقوع الهم من يوسف عليه السلام، حيث إن لولا حرف امتناع لوجود وفي الجملة تقديم وتأخير، على معنى أنه لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، وهذه الصياغة وهي تنفي وقوع الهم، لكنها تفيد معنى المقاربة والمشارفة، وهنا الفرق بين يوسف وبين تلك المرأة، فحيث قد فقدت كل كوابحها الخلقية والاجتماعية والنفسية، فإن يوسف عليه السلام بما أراه الله من البراهين ومآلات الأمور، وبما آتاه من الحكم والعلم، ممسك بزمام نفسه، ومحفوظ بحفظ الله له، وهذا التوجيه اللغوي أولى من إثبات الهمّ ليوسف.

ومن المعاني التي ذكروها في الهمّ: همَّ الضرب والبطش والدفع، وقد يؤيد هذا المعنى أنها سيدة تأمر عبدها فيتأبى عليها، فتهم أن تبطش به بعصاً أو بحديدة ثم تتراجع لضعفها أمامه أو لرجائها أن يلين، وهو الآخر حيث يرى شدة ملاحقتها ومحاصرتها له، يهم بدفعها أو ضربها، لكن يتمالك نفسه بعدما يتذكر أنها قد تتأذى ويتعقد الموقف، أو يلهمه الله تعالى أمراً، فيصرف هذا الخاطر، ثم يكون منه التوجه نحو الباب.

ويأتي التعقيب في الآية الكريمة: (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلَصين)، والتعبير يفيد أن يوسف بعيد عن السوء والفحشاء، وهما اللذان يسعيان للاقتراب منه، والتعليل أن يوسف من عباد الله المخلصين، فهؤلاء أخلصوا لله وحده ولا حظّ لغيره فيهم من الشياطين والشهوات وحظوظ الدنيا، وما كان الله تعالى ليتركهم أو يخذلهم.